دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: الإحساس بالمكان
المصدر: مجلة آفاق
الناشر: إتحاد كتاب المغرب العربى
المؤلف الرئيسي: نجمي، حسن
المجلد/العدد: ع 2
محكمة: لا
التاريخ الميلادي: 1992
الصفحات: 58 - 60
رقم MD: 519736
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: AraBase
مواضيع: العمارة الإسلامية ، الفن التشكيلي ، الفن المعماري ، المغرب، تخطيط المدن ، الإبداع الفني
رابط: http://search.mandumah.com/Record/519736

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الإحســـاسُ بالمكـــان

• حســن نجمــي

• لمـاذا الفضـاء المدينـي ؟

ـــ أن نضع علائق المدينة بالتشكيل موضع تساؤل أو تأمل وتفكير، معناه أننا نفتح أفقا آخر في مسارات الحفر داخل الجسد الثقافي الوطني، في سياق نهوض يعيد امتلاك الذاكرة ويستبطن الواقع ويسائل الذات.

هو أفق أيضا لتحسيس، ليس المجتمع بوجه عام، بل تحسيس المثقفين والمبدعين بأهمية سؤال المدينة أولا. والحال أننا لا نزال نفتقر إلى كتابة فكرية وإبداعية تعبر عن إحساس مغاير بالمدينة، أو إنْ صحَّ التعبير إحساس بالأمكنة.

ـــ لكن لماذا المدينة وليست البادية ؟

واضح أن الأمر يتعلق بوجه من وجهين اثنين في **علاقة الفضاء بالتشكيل**، إذ مثلما هو مقبول ومشروع وضروري أن نبحث في مستويات علاقة (أو علائق) المدينة بالتشكيل، يمكننا أن نتحدث عن علاقة البادية بالتشكيل أيضا. ولعل الجهود الرائدة في الجمع والبحث والدراسة التي بذلها الباحث الهولندي بيرت فلينت (المقيم بالمغرب) حول المستويات الفنية والجمالية للإنتاج التشكيلي القروي تظل مَعْلَمَةً مضيئة للاستدلال على أهمية علاقة الفضاء البدوي بالتشكيل (معمار، زَرْبيَّة، أدوات طبخ وضوء، خشب، ألبسة ...).

ـــ وإذن، لا يجب أن يُختزل وعيُنا بالمكان في أبعاده التشكيلية والجمالية إلى مجرد مكان حضري. لكن هذا الوعي أيضا لا يعني أن ثمة تطابقا في هذا الموضوع. فالحديث عن المدينة هو حديث عن إدخال لنوع من النظام والعلاقة إلى فضاء معين ؛ نظام وعلاقة متغايران للنظام والعلاقة السائدين في الفضاء القروي.

كما أن الحديث عن المدينة يطرح بالضرورة السؤال حول **معنى المدينة**. المدينة كأصول وكذاكرة، المدينة كبِنْيَة وكتطور بنيوي. المدينة كفضاء له وظيفيَّة داخلية وخارجية، مادية وروحية، له تنميته الخاصة والعامة، له ضجيجه وصخبه. المدينة كسندٍ للحياة الفكرية وكأفق للتقنية وللتحديث.

ـــ لذلك، يصبح واضحا أن الرهان على فهم العوامل التكوينية والجغرافية والتاريخية للحياة في المدينة هو أحد أهم رهاناتنا على فهم حاضرنا واستشراف جانب من جوانب حياتنا في المستقبل. وهنا لا ننسى أن المدينة هي نتاج **تطور تاريخي**، نتاج **قرار سياسي** معين لسلطة معينة، نتاج **مطلب اجتماعي واقتصادي**، وبالتالي نتاج فكر إبداعي (التخطيط والمعمار والإنشاء ...).

ومن هنا قيمة وثراء السؤال حول علاقة المدينة بالتشكيل الذي يطرحه اتحاد كتاب المغرب، السؤال الذي علينا أن نجيب عنه جميعا بما لدينا من تعدد في الاختصاصات وفي التوجهات والتجارب، وبما نملك من إحساس مشترك بالفضاء، كأمكنة وكعلائق.

•الأبعـاد التشكيليـة للمدينـة

ـــ وبخصوص علاقة المدينة بالتشكيل، أرى أنه من الضروري أولا أن نحدد نوع المدينة التي نقصد في هذه العلاقة (إن مراكش ليست هي طنجة، وفاس ليست هي الخميسات أو الريصاني أوشفشاون، ومكناس ليست هي أصيلة أو وجدة مثلا). إذ أن مثل هذا التحديد يجعلنا ندرك نمط علائقها بالحقول التشكيلية، فهناك مدن غنية ومشبعة تشكيليا وبصريا وهناك مدن تحتاج إلى تشكيل أو إلى إعادة نظر تشكيلية شاملة، سواء على مستوى تشكلها أو على مستوى جماليتها.

ـــ موضوع التشكيل بالنسبة للمدينة نفهم منه : نظاما عمرانيا ينجزه التخطيط الحضري l'Urbanisme، والمعمار l'Architécture الذي يشكل الشكل المعماري (للبنايات العمومية والخاصة) في بُعدَيْه الوظيفي والجمالي، ثم ما يستتبع ذلك من مظاهر استتيقية أساسية وضرورية (أنصاب، مِسَلَّات، جداريات مرسومة، منحوتات ...).

نفهم منه باختصار هذا الفضاء المدني الذي تتعانق وتتكامل فيه خبرات ومعارف ومسؤوليات متعددة، فترسم فلسفة الحياة فيه وتحدد أنماط علائقه وسلوكات مستعمليه. أقصد بوتقة الإبداع الممتدة من مُتَخَيَّل المخطِّط الحضري والمعماري وصولا إلى منتج فنون «يومية» كالنحت والحفر والصباغة التصويرية وتنظيم الحدائق دون أن ننسى **اليَوْمِيَّ** كمشهد متكرر أو متجدد، كفرجة وكخطاب ...

ـــ وبهذا المعنى، فإن النظام التشكيلي للمدينة لا يمكن أن يتحقق ـــ في نظري ـــ إلا في ظل **استراتيجية ثقافية** تهتم بإدماج الفن في الحياة وإدماج الحياة في الفن، والحال أننا نعاني من غياب هذه الاستراتيجية. غياب ناتج بالضرورة عن غياب مشروع ثقافي للدولة أساسا بوصفها وصية

وصاحبة قرار من جهة، ومن جهة أخرى لأن هناك اعتقادا شائعا لدى أوصياء المجتمع يرى بأن إنتاج الفضاء العمراني والمعماري ليس حالة من حالات الإنتاج الثقافي، ومن ثم إقصاء المصالح الثقافية للدولة عن هذا الموضوع وجعله اختصاصا إضافيا من اختصاصات المصالح الإدارية المكلفة «بالأمن والمحافظة على التراب الوطني» (!)

لذلك فالدولة في المغرب لا تفكر في المدينة، عمرانيا ومعماريا، إلا بمنطق الإخضاع والتحكُّم. يهمُّها أساسا استيعاب البشر داخل الجدران وتحت المراقبة ولا يهمها نمط حياته وتربيته السكانية والجمالية. ولنا أن نستعيد ــ على سبيل التذكر والتمثيل فقط ــ كيف بدأت السلطة الإدارية تفكر في اختصاصات المعماريين وتنظيمهم وخلق وكالات حضرية وتصاميم مديرية بإشراف وزارة الداخلية غداة بدأت المدن المغربية تتكلم وتفجر غضبها في الشارع (الدار البيضاء : يونيو 1981 ــ تطوان : يناير 1984 ...)

ــ لكن في الضفة الأخرى، على المستوى الشعبي. ما الذي أنجزناه على مستوى التفكير والتواصل حول قضايا التعمير والمعمار وجماليات المدن ؟ سؤال يجب طرحه على كل حال.

ثمة شبه أمية في هذه الضفة وعلى هذا المستوى، سواء تعلق الأمر بالأفراد أو بالمنظمات الشعبية. وهناك مسافة سالبة بين الأطراف العلمية والإبداعية بهذا الموضوع. المعماري وَ / أو المخطط الحضري في وادٍ والفنان التشكيلي (أقصد الرسام والنحات) في واد آخر : لماذا وكيف ؟ وهؤلاء في جهة والباحث الاجتماعي والمسؤول السياسي في جهة أخرى، في حين تظل يَدُ السلطة مبسوطة تهدم المعالم التاريخية والجمالية كما تشاء (المسرح البلدي بالدار البيضاء، ساحة لهديم بمكناس، ساحة الفدان بتطوان ...) و «تبني» كما تشاء كما لو أن صياغة الفضاء لا تهم إلا مزاج رجل السلطة وحده.

• المدينــة كخصــاص

ــ نافذة أخرى يمكن أن نُطِلَّ منها على هذا الموضوع الهام وهي إحساسنا بنوع من الخصاص الشامل فيما يتصل بحاجتنا إلى فضاء المدينة كما يجب أن يكون.

هناك خَصَاصٌ في تجهيزات المدن، خصاص في إمكانيات ووسائل الحياة، خصاص في القيم الجميلة أحيانا (الصمت، الطمأنينة، التلقائية، النظافة، الروح المغربية ذاتها بما يعنيه من تضامن وتواصل انساني ...).

هذا الخصاص الشامل يؤدي بداهة إلى خصاص في التواصل مع المدينة. إن ما أصبحت تقوله لنا المدن غَدَا كلاماً أَخْرَسَ أو في أحسن الأحوال لكي نكون بحاجة إلى تشكيل. أقصد أننا في حاجة إلى حياة حقيقية تكون فيها المدينة حقيقية مثلما تكون فيها البادية حقيقية.

حاجةٌ علينا أن نحولها إلى حقٍّ، وحق علينا أن نناضل من أجله.